

كان يتكلم في تليفون الدكان بصوت مُرتفع، وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدكان ليبتعد ما أمكن عن الضوضاء، طويل القامة نحيلها ورؤي الجبهة والعينين. مَكُور الذقن وأما صلته فلم يبق فوق مرآتها إلا جذور شعر أبيض مثل منابت شعر ذقنه، علي ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج. وبدا أنه ينظر إلي الداخل لا إلي الطريق ثم مال يُمَنة بمحاذاة صف من اللوريّات الواقفة نسق التوار حتي وجد منفذا إلي الشارع، وما كاد يجاوز مُقدمة اللوري الأخير حتي شعر بسيارة فوردي تندفع نحوه بسرعة فائقة. وقال أحد الشهود فيما بعد إنه كان عليه أن يتراجع بسرعة وإنه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة، ولكنه لسبب ما لعلّه المفاجئة أو سوء التقدير وثب إلي الأمام وهو يهتف "ياساتر يارب" وجرت الحوادث متلاحقة. ندّت عن الرجل صرخة كالعواء وفي ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة الواقفين علي التوار، حتي تكون منهم سور غليظ منيع وانتشر في المنطقة الهرج، وقد فقدت حذائها، الرجل وهو يرتفع في الفضاء امتارا ثم يهوي فوق الأرض كشيء، وبسرعة وبدون أن ينظر إلي يساره كما يجب"، وإذا لم يجد وجهها مستجيبا عاد ليقول بلهجة خطابية: "لم يكن بإمكانني تفادي الصدمة". "لكنه طار في الهواء والعياذ بالله" وجاء شرطي مسرعا وفتح له وقع قدميه ثغرة في السور الآدمي، خطوات فقط وعينهم لا تتحول عن الرجل ولا تخفي حدة تطلعها وإشفاقها وقال إنسان: "سببني هكذا حتي يموت ونحن لا نفعل شيئا" فأجابه الشرطي بلهجة رادعة "أقل لمسة قد تقتله، وبوليس النجدة والإسعاف في الطريق إليه" واعترض الحادث جانب الطريق واضطرت السيارات إلي الالتفاف حول السور البشري مشاركة الترام في ممشاة. فضايق بها حتي تحركت في بطء شديد وتجمعت في صفوف ممتدة ومتداخلة وهي تصرخ وتعوي بلا فائدة، ومن ركابها تطلعت أعين إلي الضحية في اهتمام وأعين تجنبت النظر في جذع. وجاء بوليس النجدة وراء صفارته الحلزونية فانتسعت الحلقة وغادرت القوة السيارة إلي الرجل الملقى وكان الضابط حاسما وحازما، فأصدر أمرا بتفريق المتجمعين، وإذا لم تكن ثمة ضرورة إلي السؤال فإنه لم يلق بالا إلي الجواب، فتقدم ماسح أحذية وسائق لوري وصبي كباجي كان عائدا بصينية فارغة، وأعادوا علي مسمع الضابط ما حدث منذ ما كان الرجل المجهول يتكلم في التليفون. ثم نهض متوجها إلي الضابط فبادره هذا قائلا: "أظن يجب نقله إلي الإسعاف"، فقال الآخر بلهجة ذات أثر لا يختلف عادة عن الأثر الذي يحدث عن جرس سيارته: "بل يجب نقله إلي مستشفى الدمرداش" وعندما أُرقد الرجل بحجرة الفحص في مستشفى الدمرداش، ثم التفت إلي مساعده قائلا: "إصابة خطيرة في الرئة اليسري،" عملية! فhez رأسه قائلا: "إنه يحتضر!" فالتفت المدير نحو مساعده وهو يقول انتهي. عدا فردة الحذاء المفقودة، وقال الطبيب: "هذه الحوادث لا تنتهي"، ودس الضابط يده برفق في جيب الجاكتة الداخلي فاستخرج حافظة نقود قديمة متوسطة الحجم ومضي يفتشها جيبا جيبا، رويشتة للدكتور فوزي سليمان"، وألقي نظرة عابرة علي أسماء الأدوية، ولكنه لاحظ وجود كتابة علي ظهرها وجره بصره عليها بلا إرادة فإذا بها مجلد صغير من الصور القرآنية، ساعة يد، وكان آخر ما عثر عليه صفحة مطوية من كراسه وبسطها فوجدها رسالة لم تغلف بمظروف بعد، نظر أول ما نظر علي الإمضاء ولكنه لم يزد عن "أخوك عبد الله"، أضطر إلي التوقف رافعا عينيه إلي تاريخ الرسالة وكان تاريخ اليوم نفسه ٢٠ فبراير، الجامد كتمثال، فانتبه إلي نفسه وابتسم ابتسامة إستهانة ليدل علي اعتياده أي شيء وقال "اليوم تحقق لي أكبر أمل في الحياة" بذلك بدأت الرسالة وعاد إلي القراءة متجنباً النظر إلي عيني الطبيب، انزاحت جميعا والحمد لله، النص الأصلي كان يتكلم في تليفون الدكان بصوت مُرتفع، وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدكان ليبتعد ما أمكن عن الضوضاء، ثم ختم حديثه بقوله: "إنظرنني سأحضر فوراً". كان في الستين أو نحوها، طويل القامة نحيلها ورؤي الجبهة والعينين. وقد أفصح مظهره عن إهمال صريح نتيجة للسن أو الطبع أو نسيان للذات، علي ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج. وبدا أنه ينظر إلي الداخل لا إلي الطريق ثم مال يُمَنة بمحاذاة صف من اللوريّات الواقفة نسق التوار حتي وجد منفذا إلي الشارع، مرق من المنفذ ليعبر الشارع إلي ضفته الأخرى، وقال أحد الشهود فيما بعد إنه كان عليه أن يتراجع بسرعة وإنه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة، ندّت عن الرجل صرخة كالعواء وفي ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة الواقفين علي التوار، وفوق إفريز محطة الترام صدر عن فرملة الفوردي صوت محشرج متشنج ممزق وهي تزحف علي الأرض بعجلات متوقفة جامدة وهرع نحو الضحية في ثوان عشرات وعشرات كأسراب الحمام، حتي تكون منهم سور غليظ منيع وانتشر في المنطقة الهرج، وكان منكفئا علي وجهه ولا يجرو أحد علي لمسه وإحدي رجليه ممدودة إلي آخرها والأخرى منثنية منحسرة البنطلون عن ساق نحيلة غزيرة الشعر، وكأن الأمر لا يعنيه البتة. الرجل وهو يرتفع في الفضاء امتارا ثم يهوي فوق الأرض كشيء، وألصق سائق الفوردي ظهره بالسيارة من باب الحيطه وراح يخاطب مجموعة من الحفاة أهدقت به علي سبيل المراقبة: "لا ذنب لي"، "لكنه طار في الهواء والعياذ بالله" لا يوجد دم؟" "عند فمه انظر. كل ساعة حادثه من هذا النوع" وجاء شرطي مسرعا وفتح له وقع قدميه ثغرة في السور الآدمي، نفذ منها وهو يصيح في الناس أن

يبتعدوا خطوات. خطوات فقط وعينهم لا تتحول عن الرجل ولا تخفي حدة تطلعها وإشفاقها وقال إنسان: "سبقي هكذا حتي يموت ونحن لا نفعل شيئا" فأجابه الشرطي بلهجة رادعة "أقل لمسة قد تقتله، وبوليس النجدة والإسعاف في الطريق اليه" فضاق بها حتي تحركت في بطاء شديد وتجمعت في صفوف ممتدة ومتداخلة وهي تصرخ وتعوي بلا فائدة، وجاء بوليس النجدة وراء صفارته الحلزونية فانسعت الحلقة وغادرت القوة السيارة إلي الرجل الملقى وكان الضابط حاسما وحازما، فأصدر أمرا بتفريق المتجمعين، وتفحص الرجل بنظرة شاملة وسأل الشرطي: "ألم تحضر الإسعاف؟" وإذ لم تكن ثمة ضرورة إلي السؤال فإنه لم يلق بالا إلي الجواب، وتسائل مرة أخرى: "هل من شهود؟" فتقدم ماسح أحذية وسائق لوري وصبي كباجي كان عائدا بصينية فارغة، وأعادوا علي مسمع الضابط ما حدث منذ ما كان الرجل المجهول يتكلم في التليفون. وجاءت سيارة الإسعاف وأحاط رجالها بالرجل، ثم نهض متوجها إلي الضابط فبادره هذا قائلا: "أظن يجب نقله إلي الإسعاف"، فقال الآخر بلهجة ذات أثر لا يختلف عادة عن الأثر الذي يحدث عن جرس سيارته: "بل يجب نقله إلي مستشفى الدمرداش" وعندما أُرقد الرجل بحجرة الفحص في مستشفى الدمرداش، تهدد القلب مباشرة" وصدقت فراسة الطبيب فلقد تحرك الرجل حركة شاملة كالرعدة واضطرب صدره اضطرابا متلاحقا متحشرجا، ثم شفق شهقة خفيفة واستكن، وكان الطبيبان يراقبان، عدا فردة الحذاء المفقودة، فقال الضابط وهو يوميء إلي الفقيه: "وشهادة الشهود ليست في صالحه"، ثم وهو يقترب من السرير: "أرجو أن نستدل علي شخصيته" وتأهب بدوره لتسجيل المحضر، وألقي نظرة عابرة علي أسماء الأدوية، ولكنه لاحظ وجود كتابة علي ظهرها وجرحه بصره عليها بلا إرادة فإذا بها ثم واصل إملاؤه وأصابه تستخرج من الحافظة محفوظاتها. مجلد صغير من الصور القرانية، وانتقل إلي الجيب الداخلي وما لبث أن قال في فتور: "ثلاثة قروش ونصف عملة معدنية" وتوالي التفتيش وتتابع الإملاء، وكان آخر ما عثر عليه صفحة مطوية من كراسه وبسطها فوجدها رسالة لم تغلف بمظروف بعد، فعاد إلي رأس الصفحة ولكن الرسالة كانت موجهة "إلي أخي العزيز أدامه الله" فاستاء من هذه المعاندة ولم يجد بدا من قرائتها. أضطر إلي التوقف رافعا عينيه إلي تاريخ الرسالة وكان تاريخ اليوم نفسه ٢٠ فبراير، ذلك الذي تحقق له أكبر أمل في الحياة وتسائل الطبيب عثرت علي شيء؟ انزاحت جميعا والحمد لله، أمينة وبهية وزينب في بيوتهن، وكلما ذكرت الماضي بمتاعبه وكدحه وشقاءه أحمد الله المنان، وهذا هو النصر المبين"، واسترق النظر مرة أخرى إلي الإنسان الراحل الذي لا يدري أحد مقره، "المتاعب والقلق والشقاء والأمل الكبير والنصر المبين، قرأ رأيي علي ترك الخدمة فعلا، فبهيات أن تتحسن صحتي طالما بقيت في المدينة